المقدســـــــى
ابو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء
(نحو ٣٣٥ ـ ٣٨٠ هـ)
(نحو ٩٤٦ ـ ٩٩٠م)

للدكتور شاكر الفحام

١ - عصر المقدسي :

يُعدُّ القرنّ الرابع الهجري من أزهى عصور العربية وأغناها ، فيه تفتح العقل العـربي على هذا النتـاج الخـصب في مـختلف العلوم والمعارف ، وقد وافته به القرون السالفة ، فهيّأت له البيئة العلمية المواتيـة ، فانصـرف إلى البحث ، وتوفر على الدرس ، فـابتكر وأبدع ، وخطا بالمعرفـة في شتى جوانبـها الخطوات الفـسـاح ، وأصـاب من النُّجح الحظ الأوفى .

وأينما قلّبت البصر فيما خلّفه العلماء والأدباء في القـرن الرابع طالعـتك هذه الصفحات الناصعات من حضارة العرب المشـرقـة الزاهرة تطلُّ عليك ببدائعـها ، وظّللتك أدواحـها البـاسـقـات قـد زكت غـرسـا ، وأينعت وطابت ثمـرات وجني .

وإنها لتبهرك وتروعك بسعتها وثرائها ، تنتقل بك من أسوار الصين شرقا حتى جبال البرانس غربا .

ولقد تتابع الباحثون والدارسون من علمـاء العصر يكشفون عن هذه الآفاق الرحاب التي بلغتها الحضارة الإسلامية في المئة الرابعة ، ويغوصون على لآلئها .

ولا أريد في هذا المقام أن أمضي في تعـداد تلك الدراســات، بل يكفـيني أن أشير إلي كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري للاستاذ آدم متز ؛ ففيـه الشاهد الكافي على الشأو البعيد الذي بلغته في القرن الرابع . أما كتاب النثر الفني في القرن الرابع الهجري فقد وقفه صاحبه الدكتـور زكي مبارك على التحدث عن آفاق الازدهار والتطور التي بلغها هذا اللون من ألوان البيان والتعبير

في ظلال هذه الحضارة السامية المجيدة .

وأخلص من هذه اللمحة السريعة في تبيان المكانة المرموقة التي احتلتها الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري لأولَىَ وجهي شطر ميدان واحد من ميادينها هو ميدان الجغرافيا ، فأشير إلى الدراسات الخصبة المختلفة التي قام بها المؤلفون العرب ، فأضافوا إلى تراث أسلافهم مادة جديدة ، أغنوا بها هذا الجانب الهام من جوانب المعرفة.

وقد تنوعت تآليفُهم وتعددت أغراضهم ومطالبهم في هذا الميدان ، فنجد أمثال الهمداني (ت ٣٣٤هـ) في مؤلفه (صفة جزيرة العرب) الذي تصدّر كتب الجغرافيا الإقليمية ، وأمثال المسعودي (ت ٣٤٦هـ) الذي جال في الآفاق ، وألمّ بمعارف عصره ، وأودع كتابيه : (مروج الذهب) و (التنبيه والإشراف) مادة جغرافية هامة ، وأمثال رحلة ابن فضلان ، ورحلة أبي دلف .

ولكنني أتجاوز هذا النشاط الجغرافي الواسع في القرن الرابع لأقصر نفسي علي ذكر أولئك الجغرافيين الذين عُنوا بنمط من التأليف يصف الممالك الإسلامية في الأعم الأغلب ، ويندرج في بابه (المسالك والممالك) ، فأقاموا معالمه ، ووطّؤوا مسالكه ، فكانوا السابقين المهدين للمقدسي .

ففي مطالع هذا القرن ألّف أبو زيد البلخي (ت ٣٢٢هـ) كتابه (صور الأقاليم) ، وكذلك أبو عبد الله الجيهاني وزير السامانيين ألف كتاب المسالك والممالك [١] .

ثم جاء أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري فألف كتابه (المسالك والممالك) ، وتلاه أبو القاسم محمد ابن حوقل الذي لقى الإصطخري وأفاد منه [٢]، وألف كتابه (صورة الأرض) .

ومن أبرز ما عُني به هؤلاء المؤلفون

---

(١) أخرج الأستاذ كراتشكوفسكي كتاب الجيهاني من نمط كتب المسالك والممالك المعروف (تاريخ الأدب الجغرافي/الترجمة العربية (١:٢٢٠).

(٢) صورة الأرض لابن حوقل : ٢٨٤ (ختام إقليم السند) . وكان ابن حوقل قد بدأ سفره من مدينة السلام في شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ (صورة الأرض : ١٠) .

رسمُهم خرائط الأقاليم التي تحدثوا عنها في كتبهم .

ولا يسمح المجال بأكثر من ذكر هؤلاء الأسلاف من جغرافيي القرن الرابع الذين مهّدوا للمقدسي الذي يعدّ كتابه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) الذروة التي بلغها هذا الطراز من التأليف في المسالك والممالك .

وقد فصّل الأستاذ كراتشكوفسكي القول في مناهج الجغرافيين العرب في القرن الرابع الهجري ، في كتابه الشهير (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) في الفصول : السادس والسابع والثامن وجزء من الفصل الخامس [٣].

٢ - سيرة المقدسي :

لم تُعْنَ المصادرُ العربية بالترجمة للمقدسي . وكل ما نعرفه عن سيرته هو ما يمدّنا به كتابه الشهير (أحسن التقاسيم) .

وجاء في مخطوطة كتابه المحفوظة في برلين [٤] أنه : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البنّاء الشامي المقدسي المعروف بالبشاري [٥]. وهو في معجم البلدان : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البنّاء المقدسي[٦] ، وإن تكن النسبة المحببة إلى ياقوت هي البشاري فقد رددها مرارا في كتابه [٧].

---

(٣) تاريخ الأدب الجغرافي العربي (الترجمة العربية) ١ : ١٥٥ - ٢٤٤ ، وانظر كتاب أندريه ميكيل : جغرافية دار الإسلام البشرية (الترجمة العربية) ١/ق٢ : ٧٥ - ١٣٢ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية (النص الفرنسي /ط ١) ٣. ٧٥٧ .

(٥) صفحة العنوان من كتاب (أحسن التقاسيم) المطبوع في مدينة ليدن ١٩٠٦ م .

(٦) معجم البلدان لياقوت الحموي : (سامان ، سامراء ، السند ، صغانيان ، عكة ، عَمّان ، عين سلوان ، كرمان، المقدس ، نسا) .

(٧) معجم البلدان : (٧:١) أرجان ، أرد شير ، خرّة ، بذخشان ، البصرة ، بنكث ، بيت لحم ، خانقين ، الختل ، خوارزم ، درابجرد ، دستجرد ، الدسكرة ، دشت بارين ، دهستان ، رأس عين ، الرقة ، الرملة ، رمّ ، سابور، الساهرة ، السغد ، سلوان ، السيرجان ، شاش ، شهرستان ، شيراز ، طور زيتا ، عرفات ، عمواس، غرشستان ، فلسطين ، فيروز اباد ، قاين ، القفس ، قوهستان ، كازرون ، الكعبة ، المقام ، مقدونية، منى) وانظر معجم الأدباء ٣ : ٨٦ .

ينتمي أبو عبدالله محمد إلى أسرة اتخذت بيت المقدس موطنا لها وسكنا ، ومن هنا جاءت نسبته (المقدسي) التي عرف بها [٨].

أما نسبته إلى الشام فلأنه الإقليم الذي تقع فيه مدينة بيت المقدس التي نشأ في أحضانها[٩] ويقال له أحيانا : (فلسطيني) نسبة إلى فلسطين ، وهي الكورة التي تضم بيت المقدس [١٠] ، فإقليم الشام ، كما ذكر المقدسي ، يقسم إلى ست كور : قنسرين ثم حمص ثم دمشق ثم الأردن ثم فلسطين ثم الشراة[١١] .

كان جدُّه أبو بكر البنّاء من ساكني بيت المقدس ، عُرف بمهارته في العمارة والهندسة والبناء ، ولذلك لقب بالبنّاء . وذكر المقدسي في كتابه أن أحمد بن طولون (الذي ولي مصر سنة ٢٥٤–٢٧٠ هـ ، وضمّ إليها الشام سنة ٢٦٤هـ)[١٢] لما زار مدينة (عكا)[١٣] وأراد تحصينها على مثال تحصين مدينة (صور) جمع المهندسين والصناع ، وعرض عليهم ذلك، فبينوا له أنه لا يهتدي أحد إلى البناء في الماء إلا أبو بكر البنّاء (جدُّ المقدسي) ، فاستدعاه من بيت المقدس ، وناط به العمل ، وأكمل أبو بكر تحصين (عكا) على خير وجه ، وكتب اسمه على السور ، فدفع إليه ابن طولون ألف دينار سوى الخلع وغيرها من المركوب[١٤]. ووكل إليه السلطان مرة

---

(٨) أحسن التقاسيم : ١ ، ٤٣ ، ٢٠٧ ، وانظر ص ١٨٨ ، ١٩٨ .

(٩) أحسن التقاسيم . ٣٢ ، ٤٣ ، ١٢٧ ، ١٤٣ .

(١٠) أحسن التقاسيم : ٤٣ ، ١٥٤ ، ٤٤٠ .

(١١) أحسن التقاسيم : ١٥٤ .

(١٢) وفيات الأعيان ١ : ١٧٣ – ١٧٤ ، تاريخ ابن الأثير ٧ : ٧٣ ، ١٢٥ – ١٢٦ ، ١٦٤ ، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ٣ : ١٢٢ – ١٢٦ ، الوافي بالوفيات للصفدي ٦ : ٤٣٠ – ٤٣٢ ، خطط المقريزي ١ : ٣١٤ – ٣١٥ ، المقفي للمقريزي ١ : ٤١٧ –٤٥٢ .

(١٣) رسمها ياقوت الحموي في معجم البلدان : (عكة) .

(١٤) أحسن التقاسيم : ١٦٢ – ١٦٣ . معجم البلدان (عكة) . وقال ابن الأثير في حديثه عن مناقب أحمد بن طولون «وهو الذي بنى قلعة يافا ، وكانت المدينة بغير قلعة» (الكامل ٧ : ١٦٤) ، وكذلك قال البلويُّ في سيرة أحمد بن طولون ص ١٨٤ .

أخرى أمر الإشراف على التنقيب[١٥].

ويحدثنا المقدسي عن عمه أبي علي الحسن بن أبي بكر البنّاء الحديثَ الذي يدلُّ على تضلعه في العلم وفطنته ، وخبرته التي اكتسبها بمرافقة أبيه أبي بكر ، وقد روي المقدسي عنه ، وكان يسأله ويطمئن إلى إجابته[١٦].

أما جدُّه لأمه أبو الطيب الشوا فأصله من مدينة (بيار) [١٧]، إحدى مدن كورة (قومس)[١٨] من إقليم الديلم[١٩]. رحل من بلده إلى بيت المقدس مع ثمانية عشر رجلا واستوطنها [٢٠]. وقد ألف أهلُ (بيار) الهجرة إلى بيت المقدس حتى قال المقدسي : «وكل قومسيٌّ تراه ببيت المقدس فاعلم أنه منها» [٢١].

ويتحدث المقدسي عن مهارة أهل بيار في البناء وتفوقهم و فيقول : «ولهم خاصية في عمل الطين حتى لا ترى رئيسا ولا عالما إلا وله فيه حذق . وما رأيتُ ألطفَ من بناء دور بيار ، قد صاغوها صياغة وأكثروا مرافقها» [٢٢].

وقد أفاض المقدسي في وصف مدينة (بيار) ، واعتذر لهذه الإطالة فقال : «وإنما استقصينا وصفها كالقصبات لمعنيين : أحدهما لتعلم أنا قد أوجزنا في وصف المدن لئلا يطول الكتاب ، وقد كان يمكننا ذلك ، والثاني ، أن أصل أخوالي منها ..» [٢٣].

ثم يضيف المقدسي متحدثا عن أهل مدينة (بيار) : «.. وقد كانوا عرفوا جدَّنا

---

(١٥) أحسن التقاسيم : ٤٦ .

(١٦) أحسن التقاسيم : ٤٦ ، ١٥٩ ، ١٦٥ .

(١٧) أحسن التقاسيم : ٣٥٦ – ٣٥٧ ، وانظر معجم البلدان (بيار) .

(١٨) أحسن التقاسيم : ٣٥٣ – ٣٥٤ ، وانظر معجم البلدن (قومس) .

(١٩) أحسن التقاسيم : ٣٥٣ .

(٢٠) أحسن التقاسيم : ٣٥٧ .

(٢١) أحسن التقاسيم : ٣٥٧ .

(٢٢) أحسن التقاسيم : ٣٦٧ ، وانظر أيضا ص ٣٧١ .

(٢٣) أحسن التقاسيم : ٣٥٧ ، مع إضافة ما جاء في الحاشية نقلا عن نسخة القسطنطينية .

أبا الطيب الشوا ، وذكروا أنه رحل إلى الشام مع ثمانية عشر رجلا .. » (٢٤).

ويذكر المقدسي مكانة جده أبي الطيب الشوا في مدينة بيت المقدس ، عدالةً وغنىً ، ويكشف عن حذقه في البناء مما عرف به أهل بيار فيقول : «ولقد كان أبو الطيب الشوا مع يساره وعدالته أبداً تراه في ضياعه ، يبني خُصّاً ، أو يرفع حائطا . وكذلك أولاده وحفدته لهم هندسة وفطنة في عمل البناء من غير تعلم» (٢٥).

ويروي المقدسي عن خاله عبد الله بن الشوا (٢٦).

أما والده فلا نكاد نعرف عن حياته شيئا ، ويبدو أنه كان مترفا رخيٌ العيش، فقد تحدث المقدسي عن غلمان لأبيه(٢٧).

هذا مجمل ما جاء في كتاب (أحسن التقاسيم) مما يتصل بأسرة المقدسي .

وقد ولد أبو عبد الله بن محمد في بيت المقدس نحو ٣٣٥ هـ (٢٨). ونشأ في هذه الأسرة التي كانت تنعم بالثقافة والمعرفة ، وتعيش في ثروة ويسار ، حتى إنّ المقدسي نفسه يشير إلى هذا الغنى : «.. لأنني كنت غنيا ، في وسطي نفقة..» ويذكر أنه أنفق في رحلته فوق عشرة آلاف درهم (٢٩).

وتحُس وأنت تقرأ كتاب (أحسن التقاسيم) أن المقدسي مشغوف ببلده ، فقد أحبه أشد الحب (٣٠).

---

(٢٤) أحسن التقاسيم : ٣٥٧ ، وقد مكث المقدسي في مدينة (بيار) أربعة أشهر ، يحضر دعواتهم وأعراسهم ، فوصف عاداتهم ومأكلهم وطريقتهم في الزواج (أحسن التقاسيم : ٣٦٩-٣٧٠) .

(٢٥) أحسن التقاسيم : ٣٦٧ .

(٢٦) أحسن التقاسيم : ١٨٨ .

(٢٧) أحسن التقاسيم : ٤٤٠ .

(٢٨) أحسن التقاسيم : ٨ -٩ .

(٢٩) أحسن التقاسيم : ٤٥ ، ٤١٥ .

(٣٠) أحسن التقاسيم : ١٦٥ - ١٦٧ ، ٢٠٧ ، معجم البلدان (المقدس) .

ولئن لم يتح لنا أن نعرف تفاصيل نشأته ، وطريقة تعلّمه ودراسته ، فإن في كتابه ما يكشف عن أن المقدسي قد بدأ دراسته في بيت المقدس ، وأنه تمهر في علوم الدين ، وبرع في الفقه براعة فائقة، وكان له باع في القراءات ، وألمّ بمعارف عصره .

يحدّث المقدسي عن نفسه فيقول : «وقد اخترتُ من المذاهب مذهب أبي حنيفة رحمة الله للخلال التي أذكرها في إقليم العراق ، ومن الحروف مقرأ أبي عمران عبد الله بن عامر اليحصبي للمعاني التي أصفها في إقليم أقور»(٣١). ويقول متحدثاً عن كتابه ، والنهج الذي ارتضاه لترتيبه: «ورتبناه على مذاهب أهل العراق ، لأني فيها تفقهت ، وإياها اخترت ..» (٣٢).

ويباهي المقدسي بأول إمام درس عليه فيقول : «.. وناظرتُ على طريقة القاضي أبي الحسين القزويني لأنه أول إمام عليه درست» (٣٣).

ونستطيع أن نستشفّ من عبارة له أنه أقام في بيت المقدس عشرين سنة . يقول : «ومكثتُ أنا عشرين سنة ببيت المقدس أنام في البيت» (٣٤).

ويبدو أنه نشأ نشأة صالحة في بيته ، يُنبئ بذلك ما وصفه به أبو علي الحافظ إذ قال له : «قال لي : «لقد شغلتَ والله قلبي ، قلت : بماذا ، قال : أراك رجلا على طريق حسنة ، تحبُّ الخير وأهله ، وترغبُ في جميع العلوم ، وقد قصدتَ بلاداً (يعني اليمن) قد غرَّت كثيرًا من الناس ، وصددتَهم عن طريق الورع والقناعة ..» (٣٥).

---

(٣١) أحسن التقاسيم : ٣٩ ، ١٢٧ – ١٢٨ ، ١٤٢ – ١٤٤ .

(٣٢) أحسن التقاسيم : ٣٢ .

(٣٣) أحسن التقاسيم . ٣٢ ، ٧٦ ، ١٢٣ .

(٣٤) أحسن التقاسيم : ٩٧ – ٩٨ .

(٣٥) أحسن التقاسيم : ٩٧ – ٩٨ .

وقد ورث المقدسي عن أسرته معارف في العمارة والهندسة والنقش ، تتراءى جليّة واضحة في ذلك الوصف العمراني الدقيق الذي ينطوي عليه كتابه . بل إنه يناقش الصناع ويبادلهم الرأي ، يقول : «.. وجلستُ يوما إلى بعض البنائين – أعني بشيراز– وأصحابُه ينقشون بمعاول وحشة ، فقلتُ لهم : لو اتخذتم مسفنة ، وربعتم الأحجار ، وحكيتُ لهم بناء فلسطين ، وطارحتهم مسائل في البناء ، فقال لي الأستاذ : أنت مصري ؟ قلت : لا ، بل فلسطيني . قال : سمعتُ أن عندكم تخرّم الأحجار كما يخرّم الخشب ، قلت : أجل ، قال : أحجاركم لينة ولصنّاعكم لطافة . ورأيتُ لهم أعمالاً عجيبة ، وخفًا وإتقانًا لم أرها بسائر الأقاليم مثل رأس السِّكْر [٣٦]... عُملت في هذا العصر ، يعجز عن مثلها كل بناء بالشام وأقور..» . ويمضي المقدسي فيبدي ملاحظة أخرى توضح الفرق في بناء الحمامات بين رسوم الشام ورسوم فارس [٣٧].

ويمورُ كتابُ (أحسن التقاسيم) بمثل هذه النظرات التي تفصح عما يتحلى به المقدسي من دقة ملاحظة ومعرفة متعمقة في فن العمارة . ومن أمثلة دقة الملاحظة لديه ، ومهارته في الوصف حديثُه عن صنم الملتان ، فقد نعته فأتقن وأجاد[٣٨].

ولئن كان المقدسي لاينبئنا عن الزمن الذي غادر فيه بيت المقدس ، فإننا نعلم أنه حج إلى بيت الله الحرام سنة ٣٥٦هـ، وهو في الحادية والعشرين من عمره [٣٩].

فهل كان ذلك بدء رحلته التي طاف بها مملكة الإسلام ؟ مازلنا لا نملك مرجحًا لذلك . ولكننا على مثل اليقين أن المقدسي قد قضى شطرًا صالحًا من

---

(٣٦) يقصد به : سِكْر فنا خسره خرّه الذي أنشأه عضد الدولة ، انظر معجم البلدان (سكرفنّا خسره خرّه) .

(٣٧) أحسن التقاسيم : ٤٤٠ .

(٣٨) أحسن التقاسيم : ٤٨٣ – ٤٨٤ .

(٣٩) أحسن التقاسيم : ١٠١ ، وذكر المقدسي أنه عاد إلى مكة سنة ٣٦٧ هـ ، وسنة ٣٧٧ هـ (أحسن التقاسيم : ١٠١، ٢٢٣ الحاشية) .

حياته في رحلته التي زار فيها أكثر أقاليم مملكة الإسلام .

وأغفل المقدسي في طوافه الطويل أن يذكر تواريخ زياراته الأقاليم والمواضع ، فلا نكاد نتبيَّنُ طريق رحلته ولا مسالكَ انتقاله .

كان يذكر أحيانًا اسم اليوم واسم الشهر ولا يشير إلى السنة ، فحين تحدث عن جبل (صديقا) المتصل بجبل لبنان قال : «واتفق وقت كوني بهذه الناحية يوم االجمعة في النصف من شعبان» (٤٠).

وتحدث عن شهر ستان ليقول : «.وخارج البلد قنطرة عظيمة كانت وقت كوني بها منقطعة» (٤١). كذلك فقد تحدث عن زلزلة حلّت بسيراف سنة ٣٦٦ هـ أو ٣٦٧هـ قبل أن يزورها (٤٢). وذكر وهو يتحدث عن مدينة (بيار) أنه أقام فيها أربعة أشهر دون أن يحدد تاريخ الإقامة(٤٣)، وأنه قضى في اليمن حولا كاملا (٤٤).

إن التواريخ في كتاب المقدسي عزيزة نادرة ، منها أنه حج إلى مكة عام ٣٥٦هـ وعاد إليها عام ٣٦٧ وهـ وعام ٣٧٧ هـ (٤٥)، وأنه اجتاز بمدينة سرخس سنة ٣٧٤هـ (٤٦)، وأنه أنجز كتابه بمدينة شيراز (مصر فارس) عام ٣٧٥هـ (٤٧).

وهذه المواقيت القليلة لا تشفي غلة ، ولا تلبي حاجة ، ففاتنا بذلك خير كثير .

وتغيب عنا صورة المقدسي في أواخر حياته ، ولا نعرف تاريخ وفاته . ورجحت طائفة من باحثي العصر أن تكون وفاته في حدود سنة ٣٨٠ هـ (٤٨).

---

(٤٠) أحسن التقاسيم : ١٨٨ ، ١٨٩ الحاشية .
(٤١) أحسن التقاسيم : ٤٣٣ .
(٤٢) أحسن التقاسيم : ٤٢٦ .
(٤٣) أحسن التقاسيم : ٣٧٠ .
(٤٤) أحسن التقاسيم : ٨٨ .
(٤٥) أحسن التقاسيم : ١٠١ ، ٢٢٣ الحاشية .
(٤٦) أحسن التقاسيم : ٦٥ .
(٤٧) أحسن التقاسيم : ٩ .
(٤٨) جغرافية دار الإسلام البشرية لأندريه ميكيل (الترجمة العربية) ١/١ : ٦٠ ، الأعلام للزركلي ٢٠٣:٦ ، ورجح آخرون أن تكون وفاته في حدود سنة ٣٩٠ هـ (تاريخ الأدب الجغرافي العربي / الترجمة العربية ١ : ٢١٠– ، دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٧٥٧.

وذكر البغدادي في هدية العارفين أن وفاته كانت سنة ٤١٤هـ [٤٩]. وقد وهم البغدادي في ذلك . ومصدرُ هذا الوهم قول حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون إنه رأي نسخة من كتاب (أحسن التقاسيم) كتبت سنة ٤١٤هـ [٥٠].

***

٣ - أحسن التقاسيم :

يُعدُّ المقدسيُّ من أبرز علماء الجرافيا الذين نبغوا في القرن الرابع الهجري . فقد اطلع على الكتب التي ألفت في هذا الفن ، وبدا له ما يشوبها من النقص والإخلال [٥١] ، وتاقت نفسُه إلى تصنيف كتاب يكون فيه نسيجَ وحده .

وقد أعدَّ للأمر عدته ، وبدأ رحلته ، فطوف في أقاليم مملكة الإسلام . ودوّن مشاهداته وملاحظاته ، ولكنه لم يسلك في كتابه مسلك الرحالة ، بل آثر طريقة الجغرافيين الوصفية .

وقدَّم بين يدي كتابه ما ينبئ بما قاسى وعانى في رحلته ، فهو يقول في صفة كتابه : «.. وماتمَّ لي جمعُه إلاّ بعد جولاني في البلدان ، ودخولي أقاليم الإسلام ، ولقائي العلماء ، وخدمتي الملوك ، ومجالستي القضاة ، ودرسي على الفقهاء . واختلافي إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث ، ومخالطة الزهاد والمتصوفين ، وحضور مجالس القصاص والمذكّرين ، مع لزوم التجارة في كل بلد ، والمعاشرة مع كل أحد..» [٥٢]. وسمّى كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» [٥٣].

وقد رسم المقدسي خطة كتابه التي التزم بها معدّداً الموضوعات التي لابد له

---

(٤٩) هدية العارفين : ٦٣ .

(٥٠) كشف الظنون ١ : ١٦ - ١٧ .

(٥١) أحسن التقاسيم : ٣-٦ مع الحواشي ٢٤١ .

(٥٢) أحسن التقاسيم : ٢-٣ .

(٥٣) أطلق عليه ياقوت الحموي مرة كتاب البلدان ، وقال عن مؤلفه مرة أخرى : له كتاب في أخبار بلدان الإسلام (معجم الأدباء ٣:٨٦ ، معجم البلدان /المقدس) .

من التحدث عنها وهي : «ذكر الأقاليم الإسلامية ، وما فيها من المفاوز والبحار، والبحيرات والأنهار ، ووصف أمصارها المشهورة ، ومدنها المذكورة ، ومنازلها المسلوكة ، وطرقها المستعملة ، وعناصر العقاقير والآلات ، ومعادن الحمل والتجارات ، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ، ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم..» (٥٤).

ثم يبين القواعد التي أسّس عليها كتابه وهي ثلاثة :

١ – أولها : وهو أقواها وأعلاها : ما شاهده وعقله وعرفه وعلقه .

٢ – وثانيها : سؤال ذوي العقول من الناس الثقات .

٣ – وثالثها : ما وجده في الكتب التي اطلع على جلّها في خزائن الملوك(٥٥).

وقد اضطره تقلبه في البلاد ، وتنقله بين الأقطار أن يخالط جماعاتٍ شتى . وأن يقوم بأعمال مختلفة ، ولقي في رحلته الطويلة المتاعب الجمة ، والمشاقّ الصعبة ، والمحن . وكثُرتْ تسمياتُه وصفاته . يقول : «.. ولقد سُميت بستة وثلاثين اسما ، دُعيتُ وخوطبت بها ، مثل مقدسي وفلسطيني ومصري ومغربي .. ومقرئ وفقيه وصوفي .. وذلك لاختلاف البلدان التي حللتُها ، وكثرة المواضع التي دخلتُها . ثم إنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذتُ منه نصيبا .. ليعلم الناظر في كتابنا أنا لم نصنفه جزافا ، ولا رتبناه مجازا.. »(٥٦).

عُني المقدسيُّ بكتابه عناية بالغة ، ووفّر له أشياء أراد بها أن يجعله فريدا في بابه ، وقدوة لخالفيه . من ذلك .

١ – حسن تنسيقه ، ودقة ترتيبه

فقد التزم المقدسي بخطة كتابه التي

---

(٥٤) أحسن التقاسيم : ١–٢ .

(٥٥) أحسن التقاسيم : ٣ ، ٨ ، ١٠– ١١ ، ١٥ ، ٤٣ ، ٢١٢ ، ٤٧٧ ، وانظر تاريخ الفلسفة في الإسلام لـ (دي بور) (الترجمة العربية) : ٨٢.

(٥٦) أحسن التقاسيم : ٤٣ – ٤٥ ، ٤١٥ .

رسمها في المقدمة، فقسّم مملكة الإسلام أربعة عشر إقليما وأفرد أقاليم العجم عن أقاليم العرب، وفصّل كُور كل إقليم، فتحدث عن أمصارها وقصباتها ومدنها وقدّم الكور على المدن، وعُني بترتيبها قصد البيان والإيضاح، ثم رسم خرائط الأقاليم ليقرب الوصف إلى الأفهام، فلوّن الطرق بالحمرة، والرمال الذهبية بالصفرة، والبحار المالحة بالخضرة، والأنهار المعروفة بالزرقة، والجبال المشهورة بالغبرة .

والأقاليمُ العربية ستة : جزيرة العرب، والعراق، وأقور (هي الجزيرة الفراتية)، والشام، ومصر، والمغرب، وألحق بها الحديث عن بادية العرب (وشغلت الصفحات : ٦٧-٢٥٦ من الكتاب المطبوع بليدن سنة ١٩٠٦م) .

وأقاليم العجم ثمانية : المشرق، والديلم، والرحاب، والجبال، وخوزستان، وفارس، وكرمان، والسند، وذكر في ختامها مفازة العجم (وشغلت الصفحات : ٢٥٧-٤٩٥ من الكتاب المطبوع) [٥٧].

وقدّم مقدمات ضرورية قبل البدء بالحديث عن الأقاليم، بيّن فيها معاني ألفاظ اصطنعها في كتابه، كقوله : لا نظير له، يريد أن ليس مثله بتّة (ص : ٦-٨)، ثم ذكر البحار والأنهار (ص ١٠ -٢٤)، وأورد أسماء البلدان والكور والقرى التي تتفق ألفاظها، وتتباين مواضعها لئلا يُشكل على الناس أمرها (ص ٢٤-٣٠)، وعرض للمدن التي لها أكثر من اسم، نحو مكة وبكة (ص : ٣٠)، وعقّب بذكر أسماء الأشياء التي يختلف فيها أهل الأقاليم مثل (الحّام، جزّار، قصّاب)، (باقلّي، فُول)، (قِدْر، بُرْمة) (حصن، قلعة، قهندز) (ص٣٠-٣٢)، والمذاهب والذمة (ص٣٧-٤٣) وتكلم في كل إقليم بلسانهم، وناظر على طريقتهم، وضرب من أمثالهم، لتُعرف لغتُهم ورسومُ فقهائهم (ص ٣٢) .

وذكر الخصائص في الأقاليم (ص٣٧-٤٣)، والمذاهب والذمة (ص ٣٧-٤٣) ثم عرض ما عاناه وعاينه من الأسباب (ص ٤٣-٤٥)، وتحدث عن

---

(٥٧) أحسن التقاسيم : ٩ - ١٠ ، ٢٨٩ - ٢٩٠ .

المواضع المختلف فيها (ص ٤٦)، ثم أوجز بابا للفقهاء أجمل فيه ما فصّله في كتابه، وقد أفرده استجابة لأولئك الذين لا يجدون الفراغ لقراءة الكتاب كله (ص٤٧-٥٧).

ثم أكمل ذلك بإفراد بحث لذكر أقاليم العالم، ومركز القبلة، تحدث فيه عما يقوله الفلكيون والمنجمون ممن قرأ لهم، أو قابلهم وشافههم، فنقل أقوالهم للحاجة إليها في تحديد سمت القبلة، ومعرفة مواضع الأقاليم منها (ص٥٨-٦٢) .

وبعد أن أنهى المقدسي هذه المقدمات الضرورية، بدأ كتابه بذكر مملكة الإسلام (ص٦٢-٦٦) ثم تحدث عن الأقاليم، وقد صنفها أربعة عشر إقليما.

وعرض لبيان مقاييس البريد والفرسخ والميل والذراع والإصبع و الحبة (ص ٦٥ - ٦٦)، وذكر مصطلحه في المراد بأو، والواو، وثم، والمرحلة، في ذكر المسافات (١٠٦) .

ومما ساعد المقدسي على التنسيق والترتيب وحسن التأليف أنه لم يخرج كتابه إلى الناس من المسودة، بعد تصنيفه، بل أنه أطال النظر والتأمل، وعرض فصوله على الجلة من العلماء، واستشارهم، واستمع إلى آرائهم [٥٨].

ومما يدل على ما أخذ به المقدسي نفسه من التأني والروية في تأليف الكتاب تلك الإحالات الدقيقة التي تصادفك وأنت تطالعه، حتى يأمن صاحبه التكرار .

٢ - وكان من أثر التزام المؤلف بالخطة التي وضعها :

أنه كان يصف لك ما شاهد وعاين وصفًا دقيقا، وطالما كرر أنه يعرض عليك المتعارف في زمانه، لا ما جاءت به الكتب السالفة مما مضى وانقضى : «واعلمْ أني ما ذكرتُ ماعهدتُ الأمر عليه في وقتي، وقد تتغير الأمور» . «ولكننا أبدًا نُجري الأمر على ما عليه الناس»[٥٩].

فكان كتابه صورة صادقة لما كانت عليه

---

(٥٨) أحسن التقاسيم : ٨ - ٩ ، ٤٣ الحاشية ، ٢٢٣ الحاشية ، ٢٣٥ - ٢٣٦ ، ٢٩٠ .

(٥٩) أحسن التقاسيم : ٦٥ ، ١١٤ ، وانظر ص : ١١٥ - ١١٦ .

مملكة الإسلام في النصف الثـــاني من القرن الرابع الهجري .

ويعرض المقدسي في كتابه، إلى جانب وصف المدن وذكر الطرقات والمسافات وما يتصل بباب الجغرافيا الوصفية، العاداتِ الاجتماعية والأمور الاقتصادية، وفنون العمارة، ويعـدد أنواع المكاييل والأوزان والنقود، ويتحدث عن المعتقدات والمذاهب ، وطريقة الحكم من عدل وجور، ثم مـا أطلق عليـه اسم العـجـائب في الإقليم .

ويضـيف المقـدسي مـتـحـفظًا بعض التحفظ على ماألزم به نفسه ليقول : «إن هذا الشرح يتفاوت في الأقاليم، لأنه إنما يذكر مـا يعرف، فليس هو علمًـا يطرد بالقياس، وإنما يـدرك بـالمعـــــاينـة والخبر»(٦٠).

ثم يبين أنه حين يذكـر مـا يذكـر من صفات الناس وطبائعهم، إنما يقف إلى جانب الحق، فهـو لا يتملق متـوددا، ولا يذم حنقـا «..فلا يستوحش امرؤ ذكرنا عيوب بلده، فإننا لا نريد بذلك ثلبها كما لا نريد بذكر محاسنها مدحها، ولكن هذا علم موضوع على الأمانة والصدق، وذكر الخـير والشـر، ولو أخـفـيت عـيـوب بلد لأخـفـيت عـيـوب بلدي (بيت المقـدس) لشـرفـهـا وحـرمـتـهـا عنـد اللـه وعنـد خلقـه» (٦١).

وقـد غـدا الكتـاب بهـذه النظرة الواقعية التي اصطنعـها المقدسي مرآة لحياة الناس وطبائعهم وتصرفاتهم .

لقـد اطلع المقـدسي على مـا كـتـبـه أسـلافـه من الجـغـرافـيين والفلكيين وأشباههم أمثال أبي زيد البلخي، وابن خُـرداذْبه (المسـالك والممـالك) والجـاحظ (كتـاب الأمـصـار) وأبي مـعشـر المنجم البلخي، وأبي عـبـد الله الجـيـهـاني وزير أمير خراسان (المسالك والممالك)، وابن الفقيه الهمذاني، وابن المرزبان الكرخي، وإبراهيم بن مـــحـــمـــد الفـــارسـي الإصطخـري، وأبي القـاسم الكعـبي، وقـدامـة بن جـعـفـر الكاتب (الخـراج)، ووهب (كتاب المبتدأ) والبلاذري .

---

(٦٠) أحسن التقاسيم : ٦ .

(٦١) أحسن التقاسيم : ٦٥ الحاشية .

وكان المقدسي مشغولاً بالعلم، منهومًا بالمطالعة، فأقبل على خزائن الكتب المشهورة مثل خزانة عضد الدولة، والصاحب، وأمير خراسان، والرئيس أبي محمد المكيالي . وتتبع ما عند العلماء والفضلاء وأفاد من نفائسهم، وقرأ كتبًا كثيرة لم يذكر أسماءها ولا أسماء مؤلفيها .

وتحسُّ سعة اطلاعه وأنت تمضي معه في مؤلفه، فهو يعدّد لك كتبا شتى خارجة عن نطاق اختصاصه الضيق، قد نظر فيها وأفاد منها: كتاب أخبار المدينة، وكتاب أخبار البصرة، وتاريخ الشمشاطي، وكتاب الطلمسات، وكتاب الدعائم، وكتاب صنفه بعض مشايخ الكرامية بنيسابور، والزيج الأعظم .

وكان دائم القلق، يؤرقه حب الوصول إلى الحقيقة، فكان يوازن بين مختلف الروايات ويرجح، فعلّه حين اطلع على ما أورده الجغرافيون في وصف المحيط الهندي وشعبتيه المشتقتين في بحر القلزم وخليج البصرة (٦٢).

ولقد رضي المقدسي عن نفسه وعن عمله . لقد تجاوز ما قدمه أسلافه، وأتيحت له رحلة في مملكة الإسلام واسعة : «وقد شققنا بلاد الإسلام طولا وعرضا» (٦٣).

وعزف المقدسي عن تكرار ما استفاض في الكتب السابقة ليجنب كتابَه ما أُلِف وعُرف : «وقد اجتهدنا في ألا نذكر شيئًا قد سطروه، ولا نشرح أمرًا قد أوردوه إلا عند الضرورة، لئلا نبخس حقوقهم، ولا نسرق من تصانيفهم»، «إنما تركنا ما ذكره من قبلنا في تصانيفهم، ومن مفاخر كتابنا الإعراض عما ذكره غيرنا»، «إنما نترك ما ذكر أهل التصانيف قبلنا، ونذكر ما تركوه أو غلطوا فيه» (٦٤).

---

(٦٢) أحسن التقاسيم : ١٠ – ١٢ .

(٦٣) أحسن التقاسيم : ١١٦ .

(٦٤) أحسن التقاسيم : ٥ – ٦ ، ٢٤١ المتن والحاشية .

ويقول ابن حوقل (صورة الأرض ٢٨٤ ختام اقليم السند) : «ثم رأيت أن أنفرد بهذا الكتاب وإصلاحه .. من غير أن ألمّ بتذكرة أبي الفرج (قدامه بين جعفر الكاتب) وإن كانت حقا بأجمعها .. وقد كان يجب أن أذكر منها طرفا من هذا الكتاب ، لكن استقبحت الاستكثار بما تعب فيه سواي ، ونصب فيه غيري» .

وكان شعور المقدسي بالتفرد قويا، فتراءت في الكتاب نظرة الاعتزاز والتباهي بما أتى به تارة، والانتقاص من كتب سابقيه تارة أخرى، يكرر ذلك مرات، حتى بلغ به القول إنه أتى بعلم جديد : «فرأيت أن أقصد علما قد أغفلوه، وأنفرد بفن لم يذكروه إلا على الإخلال»، «وإذا نظرت في كتابنا وجدته نسيج وحده، يتيمًا في نظمه ..» . «لأن أحدا لم يتقدمنا إلى تفصيل كور الأقاليم» (٦٥).

ولكن هذا الاعتداد لم يمنعه أن يطأطئ من إشرافه ليقول : «ثم إ ني لا أبرئ نفسي من الزلل» أو يقول :«وربما سهونا عن ذكر مدنٍ وصفتها، وهي مشهورة، وقد دخلناها، فلا يلومنا من كان منها، فإن الخطأ والنسيان من شأن الإنسان» (٦٦).

وعُني المقدسيُّ برسم الخرائط والأشكال، يقول: «وصوَّرنا الأقاليم..» (ص٨)، ومثاله، فكان كلما أنهى وصف إقليم أتبعه بقوله : وهذا شكله وقد اصطنع في خرائطه ألوانًا شتى تختلف باختلاف مدلولاتها، فالحمرةُ للطرق، والصفرة للرمال الذهبية، والخضرة للبحار المالحة، والزرقة للأنهار، والغُبرة للجبال ليقرب الوصف إلى الأفهام(٦٧) .

ولم تظهر هذه الخرائط في كتاب أحسن التقاسيم المطبوع، ولكن ميلر نشر جملة منها في كتابه : الخرائط العربية (٦٨).

٣ – والصدق من أبرز ما يطالعك في كتاب المقدسي . لقد شقَّ بلاد الإسلام طولاً وعرضا، وبلغ أقاصيها، ولكنه لم يتزيد ولم يكثر : «وتجنبتُ الكذب والطغيان، وتحرزت بالحجج من الطعان، ولم أودعه المجاز والمحال، ولا سمعت إلا قول الثقات من الرجال» (٦٩).

إنه لم يتح له زيارة الأندلس فصارح قارئه بذلك : «ولو كنت دخلتُ الاندلس لكوَّرتُها، لكثرة المدن والأعمال والنواحي

---

(٦٥) أحسن التقاسيم : ١ ، ٣ ، ٦٨ ، الحاشية ، ٢٤١ ، ٢٧٠ .
(٦٦) أحسن التقاسيم : ٦ ، ٦٥ الحاشية .
(٦٧) أحسن التقاسيم : ٩ .
(٦٨) دائرة المعارف الإسلامية (ط١) ٣ ، ٧٥٧ .
(٦٩) أحسن التقاسيم : ٣ .

بها .. وقد بقى يسير من مدن الإسلام لم نذكرها لجهلنا إياها»، «غير أنا لم ندخل الأندلس فنكوِّرها»« ..غيرأنا نعجز عن تكوير الأندلس فتركناها على الجملة، ووصفنا كورة قرطبة لما كثر المخبرون عنها واتضح عندنا أمرها» (٧٠). ولشدة حيطته وتوقِّيه فقد عرض ما جاء في كتابه عن الأندلس على علماء أندلسيين وثق بهم : «وعرضتُ كتابي هذا على بعض مشايخ الأندلس بمكة سنة ٣٧٧هـ فقال ... ثم عرضت على آخر فقال..»(٧١)، وحدثني بعض الأندلسيين أنها ثلاثة عشر رستاقا»(٧٢) .

ولما بلغ إقليم السند ودار على تخومه، وبلغ سواحله كلها، ورأي وسمع . لم يسعفه الحظ بأن يحيط به إحاطته بالأقاليم الأخرى التي وصفها فقال بعد أن تحدث عما تهيأ له من معرفة بالمشاهدة والسماع : « ومع هذا فلا أضمن من وصفه ما أضمن من غيره، ولا أصف إلا أمصاره ولا أستقصي في شرحه، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: « كفي بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع » ، ولقوله : «ليس الخبركالمعاينة، ولولا خشية أن يختل هذا الأصل ويبقى من الإسلام صدر، لأعرضنا عن الكلام فيه»(٧٣) .

٤ – وما يتميز به كتاب المقدسي أن صاحبه (على ما عُرف به من ثقافة شاملة، واطلاع واسع) فقيهٌ متمكنٌ من علمه، وقد أفاد من نظرات فقهاء الحنفية، فرتب كتابه مستعينا بالقياس والاستحسان والتعارف من أصول فقه الحنفية

ثم جادل وناقش على طريقة الفقهاء ومذاهبهم ومحاوراتهم (٧٤). وقد فخر بما صنع، فقال في صفه كتابه . «ورتبناه على طرق الفقه ليَجِلَّ عند

---

(٧٠) أحسن التقاسيم : ٥٧ ، ٢١٦ ، ٢٣٥ .

(٧١) أحسن التقاسيم : ٢٢٣ الحاشية ، وانظر ، ص ٢٣٥ – ٢٣٦ .

(٧٢) أحسن التقاسيم : ٢٣٣ .

(٧٣) أحسن التقاسيم · ٤٧٥ المتن والحاشية .

(٧٤) أحسن التقاسيم : ٣٢ ، ٣٩ – ٤٣ ، ٦٧ – ٦٨ ، ١١٥ – ١١٦ ، ١٥٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٧ الحاشية (اطرد قياسنا في سائر نواحي الإسلام) ، ٣١٣ المتن والحاشية ، ٣٨٦–٣٨٨ .

العلماء إذا تدبَّروه»[٧٥].

وشيء ثالث وهو أن المقدسي قدَّم لنا صورة من مجالس العلم، ومحاورات العلماء في ندواتهم وحلقاتهم، ولم يتأبَّ عن التعلم والتعليم ، سنّة طلاب العلم في ذلك العصر .

وكتابُ المقدسي لم يلق في هذا الجانب العناية الكافية بعد، ومن المفيد أن يعيره أحد الباحثين ما هو جدير به من الدرس والاهتمام .

وإنّ ثقافة المقدسي الفقهية، والدينية عامة، جعلته يلتفت إلى أمور، ويصف أشياء لا يُعيرها غيره مثل هذا الاهتمام ، فهو الفقيه المتميز بين الجغرافيين . وقد خلَّف تخصصُه الفقهي سماتٍ بارزة من جوانب كتابه، ماكان ليعرض لها لولم يكن فقيها متضلعا من علوم الدين . من ذلك :

عنايتُه البالغة بالقراءات والمذاهب، ولقاء العلماء والشيوخ ومجالستهم والرواية عنهم بالحديث المسند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتفسير الآيات القرآنية، وإيراد الآثار المرويّة في فضائل البحار والأنهار والبلاد والشعوب، وذكر المجادلات الفقهية والدينية . وكذلك عنايته البالغة في ذكر المكاييل والموازين لحاجة الفقهاء إليها . وأمثال هذا مما نقع عليه في الكتاب [٧٦].

ولكن المقدسي، كما يبدو، لم يكن على معرفة بعلوم كان لابدَّ له من الإلمام بها، كعلم الفلك، فإذا لاذ في مثل هذه المباحث بالفلكيين قارب الصواب، وإلا كان عرضة للخطأ، فعلَه حين فسّر ظاهرة المد والجزر، فجانب الصواب [٧٧].

كذلك فقد أتت طائفة من مناقشاته العلمية مطبوعة بطابع الفقه، مما لا يلائم طبيعة الجغرافيا ومعطياتها[٧٨].

---

(٧٥) أحسن التقاسيم : ٨ .

(٧٦) أحسن التقاسيم : ١٥ – ١٦ ، ١٦ – ١٩ – ٣٩ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٣٨ ، ٣٧٦ .

(٧٧) أحسن التقاسيم : ١٣ ، ١٢٤ .

(٧٨) أحسن التقاسيم : ٦٧ ، ١٥٦ ، ٢٦٩ – ٢٧١ ، ٣٨٦ – ٣٨٨ (أصفهان) .

٥ – وأتاحت له هذه الرحـــــلات الواسعة أن تتفتح نفسه للتسامح، ويخرج من أسر العصبية المذهبية . وله في بسط ذلك رأي مقتضاه ألا يطلق لسانه في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا يشهد عليهم بالضلالة ما وجد إلى ذلك طريقا (٧٩).

***

يتجلى في حديث المقدسي النصفة والنزاهة، يطالعك ذلك في جل صفحات الكتاب : «ولكن هذا علم موضوع على الأمانة والصدق» (٨٠). فهو يذكر عدل السامانيين وضعف العباسيين، وقوة الفاطميين وبسطهم الأمن . وتجبّر البويهيين الديالمة حتى إنه تحرج من أخذ صِلاتهم، لكثرة مظالمهم (٨١).

وعُني المقدسي بأسلوبه، ومال إلى السجع . وهو يحتج لذلك ويدافع عنه . ويطالعك السجع في مواضع متفرقة من كتابه لا سيما في المقدمات التي فرشها في مطلع الحديث عن كل إقليم، وذكر خصائصه وصفاته . إنه يسجع تظرفا ويقول :«وربما سجعتُ في مواضع ليتفرج إليها عوام الناس ؛ لأن الأدباء يختارون النثر على النظم، والعوام يحبون القوافي والسجع» (٨٢).

ولكن المقدسي الذي أُوتى حسن التعبير ووضوح البيان لم يوفق في كثير من أسجاعه، مما شاب عبارته بشيء من الغموض حينًا، والركاكة حيناً آخر . من ذلك سجعاته في صفة مدينة بيار، ومدينة برذعة، وإقليم الجبال، ومدينة شيراز . وإقليم كرمان، ومدينة منوقان . فقد كانت باديةالضعف، غاية في التصنع والتكلف (٨٣).

والمقدسي ابن عصره وبيئته، يتجلى

---

(٧٩) أحسن التقاسيم : ٣٦٥ – ٣٦٧ .

(٨٠) أحسن التقاسيم : ٦٥ الحاشية .

(٨١) أحسن التقاسيم : ٤٤٨ – ٤٤٩ ، ٤٥١ حاشية ، ٤٧٢ – ٤٧٣ .

(٨٢) أحسن التقاسيم : ٥ الحاشية ، ٨ .

(٨٣) أحسن التقاسيم : ٣٥٦ – ٣٥٧ ، ٣٧٥ – ٣٧٦ الحاشية ، ٣٨٤ ، ٤٢٩ ، ٤٥٩ – ٤٦٠ .

ذلك في طائفة من الآراء الغريبة اشتمل عليها كتابه، لا تتصل بالعلم، ويثير صدورها عن المقدسي كثيراً من العجب، كقوله . إن كل بلد آخره (ان) له خاصية، وكتفسيره أسباب المد والجزر، وحديثه عن منابع نهر النيل، وذكره العجائب، وإيراده الأحاديث في ذمّ الخوز، والتحذير من ظهور الديلم (٨٤) .

***

متى ألف المقدسي كتابه (أحسن التقاسيم) ؟

حدثنا المقدسي أنه عرض ماهيّأ من فصول كتابه على العلماء و الفضلاء يستشيرهم ويستأنس بآرائهم، فلما اطمأن إلى جودة ما صنع أتمّ كتابه وأظهره . وكان ذلك وهو في مدينة شيزار، مصر إقليم فارس (٨٥).

يقول:«واعلمْ أني مع هذه الوثائق والشروط لم أُظهره حتى بلغت الأربعين، ووطئت جميع الأقاليم، وخدمت أهل العلم والدين، والكبراء و السلاطين . واتفق وفاء ذلك بمصر فارس ، في دولة أمير المؤمنين أبي بكر عبد الكريم الطائع لله، وعلى المغرب أبي منصور نزار العزيز بالله أمير المؤمنين سنة ٣٧٥، وأيام الأمير السيد أبي القاسم نوح بن منصور مولي أمير المؤمنين (٨٦).

ولكن المقدسي، وهو المعتز بكتابه كل الاعتزاز ، والَى تنقيحَه وتدقيقه، وهو يحدثنا في كتابه نفسه أنه عرض كتابه على شيخين من مشايخ الأندلس بمكة سنة ٣٧٧ هـ (٨٧).

أما ياقوت الحموي، وهو قد أكثر النقل عن المقدسي، وقد أحصيت ما

---

(٨٤) أحسن التقاسيم : ٣٦ ، ٤ ، ١٣ ، ١٢٤ – ١٢٥ ، ٢٠ – ٢٢ ، ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٧٢ – ٤٧٣ .

(٨٥) أحسن التقاسيم : ٥ الحاشية ، ٨ .

(٨٦) أحسن التقاسيم : ٨ –٩ ، والفقرة الأخيرة وردت في الحاشية مستمدة من نسخة القسطنطينية.
وقد ولى الطائع لله الخلافة العباسية سنة (٣٦٣ – ٣٨١ هـ) وولي العزيز بالله الخلافة الفاطمية سنة (٣٦٥–٣٨٦هـ) وولي أبو القاسم نوح بن منصور الساماني سنة (٣٦٦ – ٣٨٧هـ) . وانظر أحسن التقاسيم ١٣٢ ، ٣٣٨ .

(٨٧) أحسن التقاسيم : ٢٢٣ الحاشية ، وهي مأخوذة من نسخة القسطنطينية . وانظر ص ٢٣٥ – ٢٣٦ .

أشار إليه من نُقُول إشارة صريحة فبلغ (٥٥) موضعا، فإنه يذكر أنه نقل من نسخة أنجزها المقدسي سنة ٣٧٨ (٨٨).

ويذكر المقدسي أن المصنفين قبله على ضربين :

منهم من عقد لنفسه مجلس تدريس مدة مديدة، وحرص على تخريج التلاميذ لينشر اسمه في البلدان .. حتى إذا بلغ أمله وعلا ذكره صنف ، فيُتلقَّى كلامه بالقبول .

ومنهم من نسب كتابه إلى أمير جليل أو صدر نبيل ليشرف تصنيفه، ويعلو قدره .

ثم بيَّن أنه اختار الطريقة الثانية، فتدبر الملوك والأمراء والسادات والوزراء فرأي أن أحق من ينسب كتابه إليه هو السيد أبو الحسن عليٌّ بن الحسن .

وأضاف المقدسي أنه جعل كتابه عامًّا، وآثر السيد أبا الحسن بكتاب خاص سماه : (كتاب المسافات والولايات)، لأن الأجلّة والكبراء يميلون إلى ما قلَّ من االكلام ودلَّ (٨٩).

وعاد المقدسي فأشار إلى هذا الإهداء في قصيدته التي نظمها في وداع كتابه فقال :

فدونك حكمة كالدُّرِّ حسنًا

أبا حسن وزير ابن الرفيع (٩٠)

وقد طبع كتاب (أحسن التقاسيم) بمدينة ليدن (هولندا) محققًا على مخطوطتين هما :

مخطوطة برلين، ومخطوطة القسطنطينية عام ١٨٧٧م، ثم أعيد طبعه منقحا عام ١٩٠٦م (٩١) .

وتختلف المخطوطتان في إيراد طائفة من النصوص . وقد أثبت المحقق هذه الاختلافات بين النسختين في الحاشية .

---

(٨٨) معجم البلدان (البصرة) .

(٨٩) أحسن التقاسيم : ٦٦ الحاشية ، وانظر من ٨ الحاشية ، ص ٣٦٦ الحاشية .

(٩٠) أحسن التقاسيم : ٤٩٨ .

(٩١) دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٧٥٧ (ط١، بالفرنسية) ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١ : ٢٠٩ – ٢١٠ ، معجم المطبوعات العربية والمعربة لسركيس ٢ ، ١٧٧٣ .

لقد استطاع المقدسي أن يوفر لكتابه مـادة هامـة تفـرّد بهـا . رُزق الملاحظة الدقـيـقـة، والتـزم الخطة التي رسـمـهـا التزامًا تاما، وأثبت ماشاهد وعاين، أو ماتأكد له سماعه، فكان كتابه مرآة لحياة عصره الاجتماعية والاقتصادية . ولم يُغْفِل الحركة العلمية فتحدث عن العلماء ومجالس العلم .

كلُّ هذا مـهّد لكتـابه أن يتـبوأ منزلة عالية بين مصنفات الجغرافيين في القرن الرابع :

يقـول كي لسـترانج في كتـابه (بلدان الخلافة الشرقية) : «أمـا المقدسي فإنه كتب جـغرافيتـه بأسلوب خاص يختلف عمن سبقه، ذلك أنه بناه على ماشاهده بنفسه في مختلف الأقاليم، فلعل كتابه أعظم من كل مـا صنف البلدانيـون العرب وأكثرها أصالة . فوصفه للأمكنة والعـادات والطبـائع والتـجـارات والصناعات، وتلخيصه لخصائص كل إقليم يُعَدّان من خير ما كُتب في سلسلة مـصنفـات العـرب في القـرون الوسطى»(٩٢).

ويرى اشـبرنغر في المقدسي أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة، وأنه لم يسبقه أحد في اتساع مجال أسفاره، وعمق ملاحظاته، وإخضاعه المادة التي جمعها لصياغة منظمة (٩٣).

شاكر الفحام

نائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

---

(٩٢) بلدان الخلافة الشرقية : ٢٨ .

(٩٣) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١ · ٢٠٨ – ٢٠٩ .